



الحمد لله وبعد..

من أصول عقيدة أهل السنة المشهورة والتي ضمنها أئمة السلف في عقائدهم "طاعة ولاة بالأمر بالمعروف" و "عدم الخروج فيما دون الكفر البواح"، وهي مبنية على نصوص قرآنية ونبوية معروفة، والمؤمن الصادق يضع هذه النصوص فوق رأسه وبين عينيه، ولا يجد في نفسه حرجاً منها، وفي لحظة تاريخية معينة ظهرت كتلة من المنتسبين للعلم زادت في معاني نصوص الطاعة فوق القدر الشرعي، وصاروا يستعملون التشهير والتقرير لأي عالم أو داعية مستقل يظهر شيئاً من النقد الموضوعي للواقع السياسي.

هذه ظاهرة معروفة بين المعينيين بالعلم والدعوة، ثم بعد شبكات التواصل أصبحت ظاهرة يعرفها غير المتخصصين، لكن ظهر لها ممثلون جدد خلاف الرموز التقليديين لهذه الكتلة، ويطلق الناس عليها ألقاباً متعددة نسبة لبعض رواد الظاهرة، ويفتخر لي أن من الأوصاف الموضوعية لهم وصف "غالة الطاعة".

وكان بعض طلاب العلم يناقشون هذه الكتلة بذكر نصوص بعض السلف الذين سلكوا مسلك الاستقلال والنقد الموضوعي المشاع للولاة، وجلس هذه الأخبار مجموعاً بعضها في رسالة "أخبار الشيوخ" للإمام المروزي (ت 275هـ).

على أية حال، هذا مشهد إجمالي لمرحلة سابقة، احتجنا إلية تمهيداً لفهم سياقات جديدة، حيث أنه في أبريل 2013م طفت على سطح شبكات التواصل ظاهرة جديدة، وهي ظاهرة "المناصرين لتنظيم الدولة".

ومنذ ذلك التاريخ بدأت تقع تعديات وعجرفات تنظيم الدولة بشكل متتابع، قتلت القائد الفلاني في الفصيل الفلاني، سلبت ممتلكات معينة، نفذت مجزرة في قبيلة مجاورة، وضفت يدها على منطقة محررة وقتلت من قاومها، ماطلت في تسليم قاتل

معين..

وهكذا في سلسلة تجاوزات متواتلة، وكان بعض المراقبين ينظر لهذه الشريحة المتقدمة لمناصرة التنظيم ويستغرب جداً أنها جاهزة للدفاع عن أي موقف لتنظيم الدولة، أي موقف، إما بإنكار وقوعه أصلاً، أو بالإقرار بوقوعه لكن بالتعسف في تأويله.

بل ذكر لي بعض الأصدقاء أن هناك عدداً من الشخصيات المعروفة ممن كانت متقدمة لمناصرة التنظيم في تلك الحقبة، وأنه كان يقفر لمعرِّفها بعد كل حادث ويتفاجأ كل مرة أنه لا يسلِّم بالخطأ، ولا في مرة واحدة، فالتنظيم دوماً على حق! وببدأ بعض المتابعين يطرح قياساً جديداً، وهو أنه يبدو أننا أمام ظاهرة "غلاة طاعة جدد"، نفس الأسلوب في تقديس السلطان، لكن مع اختلاف اسم الزعيم فقط.

في بدايات تلك الحقبة كان الخطاب الرسمي لتنظيم الدولة يُظهر أنه لا يُكفر المخالفين ولا الجماعات المجاهدة، ثم بعد ذلك بدأ يكشف عقیدته الحقيقة في نصوصه الرسمية في الحكم بردة الجماعات الجهادية في العالم، والحركات الدعوية التي تشارك في الإصلاح السياسي عبر العمل البرلماني، والعلماء المنخرطين في مؤسسات النظم السياسية العربية المعاصرة، وعوام المسلمين العاملين في المؤسسات المعينة للنظم السياسية المعاصرة، وتنفيذ مقتضى ووجب ذلك فعلاً، باستحلال الدماء والأموال، والفتوى بطلاق نساء المجاهدين والعلماء في العالم لردة أزواجهن، ووصيتهن بالهجرة لتنظيم الدولة، وقد سبق عرض شواهد ذلك في ورقة (منزلة المجاهدين عند تنظيم الدولة).

ثم بدأ التفجير في المساجد في بلاد الحرمين تحت ذرائع متنوعة، وقتل شاب لخاله الذي رعاه، وكانت هذه اللحظة محلية -وبصراحة- لحظة فارقة كلياً في الموقف الشعبي الغاضب تجاه التنظيم، وفي هذه اللحظة لا أحصي كم سمعت شخصاً يتساءل:

ما هذا المستوى من الخنوع والرضوخ عند هؤلاء المنتسبين لتنظيم لدرجة أنه يطيع زعيمًا يأمره أن يقتل نفسه في مسجد أو يقتل خاله الذي آواه وعاشه؟!

هذه العناصر للمشهد السابق تقوينا إلى التفكير الجاد في نمط التربية الحزبية لدى تنظيم الدولة، وأن "الغلو في طاعة القيادات" والاستكانة لها والتذلل بين يديها واعتبارها ميزان الحقيقة ومعيار الصواب؛ مكون رئيس في صياغة تفكير الأعضاء.

ودعني أصارحك أيضاً، فقد كنت أظن أن هذا النمط في إلغاء شخصية الأفراد وسحق استقلالهم وتربيتهم التصاغر والانصياع في نفوسهم وتحويلهم إلى كائنات مُنفَّذة في الواقع ومحامية على الشبكات فقط؛ كنت أظن أنه توجيهات داخلية للتربية الحزبية غير علنية، ثم لما درست وثائق التنظيم وجدتهم يعلنون بكل وضوح جزءاً من هذه المبادئ، وفسرت لي هذه الإعلانات جزءاً كبيراً من سلوكيات محامي التنظيم الشبكيين.

والأمر المفاجئ هنا فيما يخصني، ليس أن هذا التنظيم لديه غلو في طاعة الولاة شبيه بما كنا نراه من غلاة الطاعة في بعض الحكومات المعاصرة، بل الذي فاجاني حفأً أن تنظيم الدولة وصل إلى مستوى علني فاق فيه كل الحكومات المعاصرة في تربية الإنذان والخنوع في أفراد التنظيم ومناصريه.

تخيل معي مثلاً إلى ماذا يمكن أن يصل التخاشع والصغر عند كل المنتسبين لغلو الطاعة في الحكومات المعاصرة اليوم؟ ما هو أقصى مستوى من التذللرأيَّة؟

هل ستقول لي: منع نقد الرئيس؟ أم تكاليف شرعة قراراته؟ أم الإسراف في إطاره ومديحه؟ أم مخاطبته بعبارات الاستخذاء؟ أم تقبيل يده؟ أم ماذا؟

كل هذه المظاهر تجاوزها تنظيم الدولة، نعم أنا جاد فيما أقول، هل تتذكرة كيف كنت تشمئز حين ترى رجلاً من أهل الشرف

والعلم ينحني لتقبيل يد مسؤول؟ أتذكر كيف كنت تتفزز من هذا المشهد؟ حسناً أقرأ ماذا يقول المتحدث الرسمي لتنظيم الدولة في بيان رسمي يتلوه بصوته يتحدث فيه عن زعيمهم أبي بكر البغدادي: (وما أدركم من أبو بكر؟ إن كنتم تتساءلون عنه فإنه حسني قرشي من سلالة آل البيت الأطهار، عالم عامل عابد مجاهد..، حرى به أن يُنَقِّبَ إلى الله بالغسل عن قدميه، وتقبيلها، ودعته أمير المؤمنين، وفدياته بالمال والنفس والولد، والله على ما شهدت شهيد) [أبو محمد العدناني، بيان بعنوان: إن دولة الإسلام باقية، مؤسسة الفرقان، الدقيقة: 49].

هكذا إذن: "النَّقْرَبُ إِلَى اللَّهِ بِغَسْلِ قَدَمِيِّ الْبَغْدَادِيِّ مِنَ الْأَقْنَارِ ثُمَّ تَقْبِيلُهَا"!

وخطر في ظني أول ما سمعتها في بيان التنظيم أنها عبارة واحدة مرت وأن أتباع التنظيم سيرفضونها حتماً ويرون فيها إراقة لكرامتهم، ثم غمرتني الدهشة حين رأيت أحد الشخصيات المناصرة لهم كتب رسالة مشهورة في تقرير وجوب مبادعة زعيمهم اسمها (مد الأيدي لبيعة البغدادي) ويدرك أهل الخبرة أنها لأحد شرعييهم المعروفيين من أهل البحرين، وجعل الرسالة على ثلاثة محاور، المحور الأول منها هو في عرض ما سمّاه (مناقب البغدادي)، وذكر في ثنايا هذه المناقب ذات العبارة التي قالها العدناني في تعظيم البغدادي:

(حرى به أن يُنَقِّبَ إلى الله بالغسل عن قدميه، وتقبيلها..، وفدياته بالمال والنفس والولد) [همام الأثري، مد الأيدي لبيعة البغدادي، ص9].

حين أخذت أتأمل هذه "العبادة والقربة" في البيان الرسمي لتنظيم الدولة تذكرت عبارة علقت بذهني منذ قرأتها قبل سنوات طويلة للإمام الحافظ سليمان بن حرب (ت224هـ) وهو شيخ البخاري وأبي داود وطبقتهم، وقد أكثر عنه البخاري في صحيحه، وهو قاضي مكة في زمنه، حيث أن من المسائل المشهورة في الفقه مسألة "حكم تقبيل يد أهل الفضل" وأكثر أهل العلم على جوازها بقيود يذكرونها كأن لا يمد يده للناس وأن لا يتخذ عادة وأن لا ينحني من يقبلها ونحوه، وتلاحظ في هذه القيود قصد الفقهاء إلى سد ذريعة المغالاة في التعظيم، وفيها آثار كثيرة جمعها الحافظ ابن المقرئ في جزء مطبوع، وكان الإمام مالك ينهى عنها، أما الإمام سليمان بن حرب فقال عبارة لافتة في صياغتها، حيث قال:

(تقبيل يد الرجل: السجدة الصغرى) [المرودي، الورع، ت الزهيري، مكتبة المعرف، ص148].

وأظن هذه العبارة للإمام سليمان بن حرب هي التي عناها الإمام ابن عبد البر في قوله "كان يقال تقبيل اليد إحدى السجدين"، وأما النبي صلى الله عليه وسلم والوالدان فيذكر لهما أهل العلم اختصاصات في تقبيل اليد والرجل لعظم حقهم.

وليس المقام هنا مقام ترجيح فقهي في هذه المسألة الفروعية، ولكنه مقام اعتبار بتعليلات الأئمة في مطاوي هذه المسائل، فانظر كيف تحرز الإمام سليمان بن حرب من تقبيل الأيدي سداً لذرية الغلو في التعظيم حتى رأى فيها خضوعاً زائداً فسمها "السجدة الصغرى"، فكيف لو رأى الإمام سليمان بن حرب المتحدث الرسمي لتنظيم الدولة وهو يعلن لأتباع التنظيم وللناس أن صاحبهم البغدادي ممن يتقرب إلى الله "بغسل رجليه وتقبيلها"! أى هوان وخضوع سيراه الإمام سليمان بن حرب في هذا؟ وإذا كان سمي تقبيل اليد "السجدة الصغرى" فماذا سيسمى "التعبد لله بغسل أقدام الأمير وتقبيلها"؟!

حين قرأت هذه العبارة "حرى أن يُنَقِّبَ إلى الله بالغسل عن قدمي البغدادي، وتقبيلها" خطر في ذهني صورة أبي بكر البغدادي وهو متssh بالسواد يخطب في ذلك المقطع المعروف الذي بثه تنظيم الدولة، فأخذت أتذكر الدماء التي أزهقها وأقول في نفسي: يا الله .. هذا هو الرجل الذي يعتقدون أنه من التقرب إلى الله "غسل أقدامه من الأوساخ وتقبيلها"؟! الحمد لله على عزة الإسلام والسنّة..

ولا أعلم أحداً من أئمة السلف ثبت عنه أنه سوَّغ "تقبيل أقدام السلاطين" فضلاً عن هذه الصورة المركبة التي فيها مزيد إمعان في الاستخza في جمع زل التنظيف وغسل القدم، مع زل إنزال الوجه والتقبيل، مع الإطراء والرفع فوق المنزلة، مع أن

أهل العلم إنما يتحدثون أصلاً في مثل هذه السياقات عن "أئمة العدل والتقوى" فكيف بزعماء الجور الذين شهد جماهير المسلمين الذين هم شهداء الله في أرضه على خوضهم في الدماء والمظالم؟

نعم، جاءت آثار في تقبيل الصحابة قدم النبي صلى الله عليه وسلم وعامتها معلول متكلم فيه، كحديث زارع بن عامر وحديث بريدة، وسيدي رسول الله يستحق هذا وأعظم منه، وفي الباب قول هرقل ملك الروم كما في البخاري (فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه) ولكن ومع ذلك كله، وحتى لو سلمنا جدلاً بثبوت بعض هذه الآثار؛ فإنني أستبعد جداً أن يجرئ هؤلاء بالقول أن ما روي مما فعلته الصحابة من تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم فإننا ن فعل نظيره في تعظيم البغدادي.

وفي بعض كتب الفقه المتأخرة توسع في جنس هذه المسائل دخلت عليهم من جهة التوسيع الصوفي في تقبيل الصالحين والترک بهم ولها نظائر في كتب الفروع المتأخرة.

والمراد أن قول تنظيم الدولة في بيان رسمي أن زعيمهم البغدادي "حرى أن يُتقرّب إلى الله بالغسل عن قدميه، وتقبيلها" يفسّر المشهد الذي رأه الناس من خنوع مناصريهم واستعدادهم المستمر للدفاع عن أي موقف للتنظيم، ويفسر -أيضاً- ما رأه الناس من رضوخ جنودهم لتنفيذ أي عملية تفجير أو انتحار مهما بلغت شناعتها في انتهاك الشرع. فما دام الغلو في الاستسلام للبغدادي انتهى عندهم إلى التقرب لله بشطف ورمح قدمي البغدادي والهوي بالشفتين لطبع القبلة عليها، فمن المؤكد أن العقل الذي بلغ قبول ذلك سيكون قد علق خاصة النظر والتعقل مسبقاً.

كيف يقبل البغدادي أن يعلن تنظيمه في بيان رسمي يدعوا أتباعه لاعتقاد "التقرب لله بغسل قدمي البغدادي وتقبيلها"؟ والله يقول (تُلَكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ).. وقال سبحانه (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ).. كيف يقبل البغدادي مثل هذا وهو أول من يعلم كذب هذه الحالات المناقبية التي نسبت له في البيان الرسمي والله يقول {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَقْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعُلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.. وهل هذا خطاب من يجاهد لتكون "كلمة الله هي العليا"، أم هذا خطاب من يقاتل لتكون "كلمة الزعيم هي العليا"؟

ومثل هذه النفوس المشحونة بروح التعاظم والتيه يعاقبها الله بأمر من أعظمها أن يحول بينها وبين الانتفاع بالحجج والأدلة والبيانات كما قال الله (سَأَصْرِفُ عَنْ أَيَّاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ).. ولذلك يلاحظ الناس أن الزعماء المتغطسين من أقل الناس انتفاعاً بالنصائح والعظات..

ويمكن أن يكون في هذا تفسير يجيب عن استغراب المعنيين بالشأن الشامي أيام بداية النزاع بين تنظيم الدولة والفصائل، حيث أن كل من سعى للإصلاح والمناصحة تلك الأيام انتهى إلى خيبة الأمل بسبب عجرفة تنظيم الدولة وتصعيده الخ لاي ناصح مهما بذل وضحي.. فمن المحتمل أن يكون هذا من العقوبة الإلهية لزعماء التنظيم التي قال الله فيها (سَأَصْرِفُ عَنْ أَيَّاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)..

وربما لاحظ القارئ -أيضاً- في نص البيان السابق ذكرهم الفداء بالنفس والولد لزعيمهم البغدادي (حرى به أن يُتقرّب إلى الله بالغسل عن قدميه، وتقبيلها، وفدائه بالمال والنفس والولد). أي أن أتباع تنظيم البغدادي يُوجّهون إلى اعتقاد التقرب إلى الله بفداء البغدادي بأنفسهم وأولادهم، فـيُوجّهون لاعتقاد التعبد لله بتعريض أولادهم للقتل صيانة لسلامة البغدادي.

ومن الطريف أن تنظيم الدولة في تفخيمهم للبغدادي يقتبسون ذات الأساليب الإعلامية التطبيقية في الدول المستبدة المعاصرة، وقد مرّ بي نماذج لذلك:

فمثلاً تجد في اللغة الإعلامية التطبيقية في الدول المستبدة المعاصرة كثرة ذكر الجولة التفقدية للرئيس وأنه يسأل عن تفاصيل احتياجات المواطنين ونحو ذلك، وهكذا يقول تنظيم الدولة عن البغدادي:

(وكذلك دأب الخليفة حيث يتأكد من أن كل احتياجات المسلمين يتم مراعاتها قدر الإمكان حتى في وسط الحرب الشرسة

وهذا نموذج آخر أيضاً: تجد في اللغة الإعلامية للدول المستبدة أنهم يعرضون أحد المشروعات ثم يذكرون في ثنايا العرض أن الفكرة فكرة سموه وسيادته! وهكذا في تقرير خاص عرض تنظيم الدولة لمشروع لديهم وهو التخلص من العملة "الورقية" وسك عملات "معدنية"، مشيرين إلى مشروع سك العملات المعدنية في عهد عبد الملك بن مروان، وعلى طريقة الإعلام التقليدي ذكرت أن الفكرة فكرة سيادة الرئيس! كما يقول التنظيم في التقرير:

(في محاولة لتخليص الأمة من الفساد والنظام العالمي الفاسد، فإن الدولة الإسلامية أعلنت عن سك نظام نقيدي جديد مبني على القيمة الذاتية للذهب والفضة والنحاس...، هذه المبادرة تم طرحها من قبل أمير المؤمنين الخليفة إبراهيم بن عواد القرشي، الذي كلف بيت المال بدراسة المسألة وتقديم مقترن متكامل عن تنفيذها..)[مجلة دايم، العدد الخامس، محرم، 1436هـ، ص18]

ثم عرضوا صور التصاميم للعملات المعدنية التي سيصدرونها والرسومات الرمزية عليها، فأحد العملات عليها صورة رمح ودرع، وعملة أخرى عليها صورة سنابل، وهكذا، وشرحوا الرسالة المستهدفة من كل صورة رمزية، كقولهم (منها صورة لسبع سنبلات لتعبير عن بركة الصدق، ومنها رمح ودرع يعبران عن الأرزاق المتحصلة من الجهاد..)[المصدر السابق]. والمراد أن وجه الشاهد هنا هو اقتباسهم أسلوب الإعلام الرسمي في عرض المشروعات الحكومية وأنها أفكار صاحب السمو وسيادة الرئيس "هذه المبادرة تم طرحها من قبل أمير المؤمنين الخليفة".

ولا يزال السؤال هاهنا قائماً وهو: كيف يتمكن تنظيم الدولة من صناعة الإذعان في أتباعه؟ وما تفسير هذا الانصياع لدى جنوده المقاتلين ومحاميه الشبكين؟

والجواب أن علماء السلوك الإسلامي قدمو تحليلات معمقة لكيفية تخلق الاستسلام في البشر، وخلاصته: "أن الإذعان في جوهره حال قلبي للتابع وهو فرع عن اعتقاد الكمال في المتبوع، سواءً كان كمالاً حقيقةً أم وهمياً"، كما يشرح ذلك أبو حامد الغزالى بعبارات خلابة يستكشف بها مجاهل النفوس فيقول:

(ولا تصير القلوب مُسَخَّرَةً إلا بالمعارف والاعتقادات، فكل من اعتقاد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال انقاد له وتسخّر له بحسب قوة اعتقاد القلب، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالاً في نفسه، بل يكفي أن يكون كمالاً عنده وفي اعتقاده، وقد يعتقد ما ليس كمالاً كمالاً، فإن انقياد القلب حال للقلب، وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها)[الغزالى، إحياء علوم الدين، دار الخير، ص4/62].

ثم تظهر آثار هذا الإذعان والتسيير على التابع كما يشرح ذلك أبو حامد أيضاً:

(وله ثمرات: كالمحظ والإطراء، فإن المُعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقد فيثني عليه، وكالخدمة والإعانة فإنه لا يدخل بذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سُخْرَةً له مثل العبد في أغراضه، وترك المنازعه والتعظيم..)[المصدر السابق، ص4/63].

وأجل تحقيق ذلك فإنك تجد تنظيم الدولة يشحّن أفراده بذكر صفات الكمال في أبي بكر البغدادي لصناعة الهالة في نفوسهم بحيث تنتهي إلى إذعانهم وتسييرهم، وهذا له نماذج:

فمن ذلك أن البيان الرسمي السابق الذي ذكر فيه التنظيم "التقرب لله بغسل قدمي البغدادي وتقبيلها" ذكر فيه في موضع واحد فقط أكثر (17) صفة ومنقبة عظيمة تخيمية للبغدادي وهي (العلم، العمل، العبادة، الجهاد، العقيدة، الجلد، الإقدام، الطموح، الحلم، العدل، الرشد، التواضع، الذكاء، الدهاء، الإصرار، الصبر، النسب القرشي..)

كما يقول البيان الرسمي للتنظيم:

(وما أدرّاكم من أبو بكر؟! إن كنتم تتساءلون عنه فإنه: حسيني قرشي من سلالة آل البيت الأطهار، عالمٌ عاملٌ عابدٌ مجاهدٌ،

رأيت فيه عقيدة وجذب وإقدام وطموح أبي مصعب، مع حلم وعدل ورشد وتواضع أبي عمر، مع ذكاء ودهاء وإصرار وصبر أبي حمزة، وقد عركته المحن وصقلته الفتنة، في ثمانين سنين جهاد يستقي من تلك البحار، حتى غدا جذيلها المحكّ وعنيقها المرجّب، حري به أن يُتقرّب إلى الله بالغسل عن قدميه وتقبّيلها، ودعوته أمير المؤمنين، وفدائه بالمال والنفس والولد، والله على ما شهدت شهيداً... وإنني لأحسب أنَّ الله عز وجل قد اختاره وحفظه وادخره لهذه الأيام العصيبة، فهنيئاً لكم يا أبناء الدولة بأبي بكر) [أبو محمد العدناني، بيان بعنوان: إن دولة الإسلام باقية، مؤسسة الفرقان، الدقيقة: 49].

تلحظ هنا كيف سرد صفات الكمال التي تتجاوز سبع عشرة منقبة، وأنها تفرقت في غيره وتكاملت فيه، كل ذلك تمهدأ ليقول "حري أن يتقرّب لله بغسل قدميه وتقبّيلها"، ثم اعتبر أن الله جل جلاله أكرم هذه الأمة بهذا الرجل الخارق بصفات كماله في هذا التوقيت، بما يستحق أن يرسل التهاني للأتباع بهذه النعمة، باعتباره البغدادي "ادخار إلهي" لهذه الأمة في هذا التوقيت.

والحقيقة أن المتابع الموضوعي إذا رأى هذه الصورة المركبة، وهي: أن يُغذّي خيال الأتباع باعتقاد هذه الكمالات المعجزة في زعيمهم، والتي تفرقت في الناس واجتمعت فيه، والإطراء والرفع فوق المنزلة، ثم يُوجهون إلى اعتقاد التقرب لله بغسل قدميه وتقبّيلها؛ فإنه من المحتمل أن يكون هذا دخول فيما يسميه أهل العلم "ذرائع الشرك".

والإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب من عنايته بهذه القاعدة "سد ذرائع الشرك" عقد لها بابين في كتاب التوحيد، (باب حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جانب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك) و (باب حماية النبي صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد وسده طرق الشرك)، وزاد على ذلك أن أشار لهذه القاعدة مراراً في مسائل الأبواب التي يذيلها بها، وقال بعض علماء الدعوة (سد الذرائع الشركية: من أكبر المقاصد الإسلامية، وقد ترجم شيخنا في كتاب التوحيد لهذه القاعدة، فرحمه الله من إمام ما أفقهه) [الدرر السنية، ص 314/8].

ومما يقرب الأمر ويسوّغ احتمالية دخول هذا السلوك في باب ذرائع الشرك الحديث الذي روي عن أنس وفيه حنظلة واستشهد به أبو العباس ابن تيمية حيث قال (أما تقبيل الأرض، ورفع الرأس، ونحو ذلك مما فيه السجود، مما يفعل قدام بعض الشيوخ وبعض الملوك: فلا يجوز، بل لا يجوز الانحناء كالركوع أيضاً، كما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: الرجل منا يلقي أخاه أينحنى له؟ قال: لا) [مجموع الفتاوى، ص 1/372].

ومن الإشكالات التي يطرحها فهم النماذج الفكرية أن يقال: من المعلوم أن اتجاهات الغلو في الدماء يغلب عليها نزعة الحرورية أما اتجاهات الغلو في طاعة السلطان فيغلب عليها نزعة الإرقاء، فكيف اجتمع هاهنا الغلو الحروري في الدماء، مع الغلو الإرقاء في طاعة السلطان؟

فالجواب أن هذا التناقض في التكوين العقدي قد يوجد في جبارة الجور، لأنهم يريدون توظيف مكتسبات البدعتين كلّيّهما، فيستثمرون بدعة الحرورية لإبادة المخالف، ويستثمرون بدعة الإرقاء للغلو في السلطان، ومن شواهد ذلك أن الحاج بن يوسف كان يسرف في قتل المناوئين ويغلو في طاعة السلطان، وكما في مسائل الإمام أحمد أن سعيد بن جبير سئل عنه قال مالك بن دينار: سأّلت سعيد بن جبير وهو في المسجد الحرام: يا أبا عبد الله ما أميركم هذا؟ قال: يفسّر القرآن تفسيراً أزرقاً في طاعة شامية، يعني الحاج) [مسائل الإمام أحمد رواية صالح، ت فضل محمد، الدار العلمية بالهند، ص 418/2].

وهذا من بديع دقة نظر الإمام سعيد بن جبير حين نظر للصورة المركبة من البدع في الخطاب الواحد، قوله "تفسير أزرقي" نسبة إلى الأزرقة أحد أشهر طوائف الخوارج، قوله "طاعة شامية" أي يغلو في طاعة السلطان، حيث كان السلف يسمون الغلو في طاعة الولاة "طاعة الشامية"، لأنها ظهرت أول ما ظهرت من جهة الشام في عهد بعض بنى أمية، كما قال الإمام ابن تيمية (ولهذا تجد في كلام كثير من كبارهم الأمر بطاعة ولí الأمر مطلقاً، وأن من أطاعه فقد أطاع الله، ولهذا كان يضرب بهم المثل يقال "طاعة شامية") [ابن تيمية، منهاج السنة، ص 6/431].

ومن أهم المناقب والمخاشر والخوارق التي ينسبها التنظيم لزعيمهم أبي بكر البغدادي، ويستعملونها لتحقيق عدة أغراض: لتربيـة الخنوع في الأتباع، ولاستئصال المنافس الجهادي، واستقطاب الجمهور البسيط؛ هو ما يمكن تسميـة "أسطورة الانفراد بالتحكـم الكامل للشـريـعة".

فيصـورـون لأتباعـهم بشـكل مستـمر وبصـيـغـة مـتنـوـعة ويـكـثـرون من الـطـرـقـ علىـهـ: أنـ الـأـمـةـ بـعـلـمـائـهـ وـمـجـاهـدـيـهـ وـدـعـاتـهـ وـعـامـتـهـ أـطـبـقـواـ عـلـىـ الـحـكـمـ بـالـطـوـاغـيـتـ، وـأـبـاـ بـكـرـ الـبـغـادـيـ انـفـرـدـ بـالـتـحـكـمـ "الـكـامـلـ" لـلـشـرـيـعـةـ، وـأـنـ النـاسـ تـوـاطـئـواـ ضـدـهـ كـرـهـاـ لـهـ لـأـنـهـ حـكـمـ الشـرـيـعـةـ "كـامـلـةـ".

وبـسـبـبـ تـشـرـبـ جـنـودـ التـنـظـيمـ وـمـحـامـيـهـ الشـبـكـيـيـنـ لـهـذـاـ الـاعـتـقـادـ فـيـ مـتـبـوـعـهـمـ أـصـبـحـواـ مـسـخـرـيـنـ لـهـ لـاعـتـقـادـهـمـ هـذـاـ الـكـامـلـ الـوـهـمـيـ فـيـهـ لـأـنـ أـحـوـالـ الـقـلـوبـ تـبـعـ لـاعـتـقـادـهـاـ كـمـاـ سـبـقـتـ الإـشـارـةـ.

وـهـذـهـ الـقـضـيـةـ، أـعـنـيـ "أـسـطـوـرـةـ التـحـكـمـ الكاملـ لـلـشـرـيـعـةـ" مـنـ أـخـطـرـ الـاعـتـقـادـاتـ الـوـهـمـيـةـ لـدـىـ أـتـبـاعـ التـنـظـيمـ، وـلـذـكـرـ سـنـعـالـجـهـاـ فـيـ الـفـقـرـةـ الـقـادـمـةـ.

### **ـ شـعـارـاتـيـةـ تـحـكـمـ الشـرـيـعـةـ**

الـاجـتـهـادـ وـيـذـلـ الـوـسـعـ فـيـ "تـحـكـمـ الشـرـيـعـةـ" مـنـ أـعـظـمـ أـصـوـلـ الـإـسـلـامـ، وـكـلـمـةـ "تـحـكـمـ الشـرـيـعـةـ" كـلـمـةـ عـزـيـزةـ فـيـ نـفـسـ كـلـ مـسـلـمـ يـحـبـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ، وـقـدـ أـشـرـنـاـ آـنـفـاـ إـلـىـ أـنـ تـنـظـيمـ الـدـوـلـةـ يـرـوـجـ فـكـرـةـ اـنـفـرـادـ بـالـتـحـكـمـ "الـكـامـلـ" لـلـشـرـيـعـةـ، وـأـنـ الـأـمـةـ بـعـلـمـائـهـ وـمـجـاهـدـيـهـ وـدـعـاتـهـ وـعـامـتـهـ يـحـكـمـونـ الـطـوـاغـيـتـ، وـيـوـظـفـ التـنـظـيمـ هـذـهـ الـفـكـرـةـ فـيـ ثـلـاثـةـ أـمـرـ: اـسـتـقـطـابـ الـجـمـهـورـ الـبـسـيـطـ، وـتـسـخـيرـ أـتـبـاعـهـمـ باـعـتـقـادـ الـكـامـلـ الـاـسـتـثـنـائـيـ فـيـ الـمـتـبـوـعـ، وـفـيـ تـكـفـيرـ وـاـسـتـبـاحـةـ دـمـاءـ أـيـ كـيـانـ أـوـ فـرـدـ يـعـارـضـ مـشـرـوـعـهـمـ باـعـتـبـارـهـ وـقـوـفـ فـيـ وـجـهـ الـحـالـمـ الـمـنـفـرـ لـلـشـرـيـعـةـ عـلـىـ وـجـهـ الـأـرـضـ.

وـقـدـ نـفـدـواـ مـوـجـبـ ذـلـكـ فـعـلـاـ فـبـنـاءـ عـلـىـ هـذـهـ الـفـكـرـةـ التـيـ يـرـوـجـونـهـ "أـسـطـوـرـةـ تـحـكـيمـهـمـ الـكـامـلـ لـلـشـرـيـعـةـ" وـأـنـ مـخـالـفـيـهـمـ يـخـالـفـونـ تـحـكـيمـ الشـرـيـعـةـ؛ فـقـدـ كـفـرـواـ وـاـسـتـبـاحـواـ دـمـاءـ الـجـمـاعـاتـ الـجـهـادـيـةـ وـالـحـرـكـاتـ الـدـعـوـيـةـ وـالـشـخـصـيـاتـ الـعـلـمـيـةـ وـقـطـاعـاـ وـاسـعـاـ مـنـ عـوـامـ الـمـسـلـمـيـنـ، وـقـدـ شـرـحـنـاـ ذـلـكـ وـذـكـرـنـاـ شـوـاهـدـهـ فـيـ الـحـلـقـاتـ السـابـقـةـ، وـخـصـوصـاـ حـلـقـةـ (ـمـنـزـلـةـ الـمـجـاهـدـينـ عـنـ تـنـظـيمـ الـدـوـلـةـ).

وـالـحـقـيـقـةـ أـنـ الـدـارـسـ الـمـوـضـوعـيـ لـسـلـوكـيـاتـ تـنـظـيمـ الـدـوـلـةـ يـدـرـكـ أـنـ قـضـيـةـ تـحـكـيمـ الشـرـيـعـةـ لـدـىـ تـنـظـيمـ هـيـ قـضـيـةـ "ـشـعـارـاتـيـةـ" وـلـيـسـ تـحـكـيمـ صـادـقـاـ مـتـلـهـافـاـ لـكـتـابـ اللـهـ وـسـنـةـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ بـفـقـهـهـ وـأـخـلـاقـهـاـ وـإـيمـانـهـاـ، وـالـمـقـصـودـ بـالـشـعـارـاتـيـةـ هـوـ الـأـمـرـ الـذـيـ يـتـظـاهـرـ بـالـعـمـلـ بـهـ كـيـانـ مـعـيـنـ وـهـوـ لـاـ يـعـمـلـ بـهـ عـلـىـ الـحـقـيـقـةـ وـإـنـمـاـ يـسـتـخـدـمـهـ لـتـكـتـيلـ الـأـنـصـارـ وـدـهـسـ الـخـصـومـ، وـسـنـذـكـرـ بـعـضـ الـمـشـاهـدـ.

مـنـ أـخـطـرـ الـمـظـاهـرـ الـوـضـوعـيـ الـمـخـالـفـةـ لـلـشـرـيـعـةـ لـدـىـ تـنـظـيمـ "ـاسـتـعـمـالـ الـحـيلـ" فـيـ الـعـقـائـدـ وـالـأـحـكـامـ، فـإـذـاـ كـانـ الـأـمـرـ يـتـعـلـقـ بـمـنـافـسـ جـهـادـيـ لـهـمـ اـسـتـحـضـرـوـاـ قـوـاعـدـ وـأـقـوـالـ وـرـكـبـوـاـ صـورـاـ فـقـهـيـةـ لـتـصـلـ فـيـ الـنـهـاـيـةـ لـتـأـصـيـلـ شـرـعـيـةـ لـلـبـطـشـ بـالـمـخـالـفـ، وـإـذـاـ كـانـ الـأـمـرـ يـتـعـلـقـ بـأـخـطـاءـ مـنـتـسـبـيـهـمـ مـاـطـلـوـاـ وـتـذـرـعـوـاـ بـأـوـهـنـ الـمـسـمـسـكـاتـ.

فـالـحـاـكـمـ الـنـهـائـيـ فـيـ مـوـاـقـعـهـ تـنـظـيمـ لـيـسـ هـوـ النـصـ الـشـرـعـيـ وـلـاـ مـذـهـبـ فـقـهـيـ مـعـيـنـ، وـإـنـمـاـ "ـمـصـلـحةـ الـحـزـبـ"ـ، وـيـتـنـطـلـبـ لـمـصـلـحةـ الـحـزـبـ كـلـ مـرـةـ تـأـصـيـلـ الـخـادـمـ لـهـ، وـبـسـبـبـ هـذـهـ الـحـيلـ صـارـتـ لـدـيـهـمـ ظـاهـرـةـ يـمـكـنـ تـسـمـيـتـهـاـ "ـمـطـاطـيـةـ مـنـاطـاتـ الـتـكـفـيرـ"ـ حـيـثـ أـصـبـحـتـ مـنـاطـاتـ الـتـكـفـيرـ فـيـ أـيـدـيـهـمـ كـالـعـجـيـنـةـ الـتـيـ يـمـدـونـهـاـ تـارـةـ لـغـمـرـ مـنـاوـيـ وـيـقـلـصـونـهـاـ تـارـةـ أـخـرىـ لـتـبـرـئـةـ مـشـايـعـ لـهـمـ.

وـمـنـ أـوـضـحـ مـظـاهـرـ الـحـيلـ وـالـمـرـاوـغـةـ بـالـأـحـكـامـ عـنـهـمـ قـوـاعـدـ الـسـيـاسـةـ الـشـرـعـيـةـ فـإـنـهـمـ يـتوـسـعـونـ لـأـنـفـسـهـمـ إـذـاـ اـحـتـاجـوـهـاـ، وـإـذـاـ عـمـلـ بـهـاـ الـفـصـيـلـ الـمـخـالـفـ هـوـلـوـاـ عـلـىـهـ بـأـنـهـ يـتـمـيـعـ فـيـ الـدـيـنـ وـيـدـاهـنـ الـكـافـرـيـنـ وـيـنـهـزـمـ عـنـ الـعـزـةـ بـالـشـرـيـعـةـ حـتـىـ يـصـلـ الـأـمـرـ لـتـكـفـيرـهـ عـلـىـ بـعـضـ ذـلـكـ.

والمرأوغة بالحيل في الأحكام الشرعية ليست نازلة جديدة، بل لقد قص الله خبرها في كتابه، حين عاقب أصحاب السبت بمسخهم قردة لما احتالوا على النصوص، وحكمه مسخهم قردة كما ذكر بعض أهل العلم أن الحيلة تظهر مشابهة النص وكذلك القرد يظهر أنه أشبه الحيوانات ببني آدم، فعاقب الله خلقهم من جنس تأوילهم، قال الإمام ابن تيمية: (وعلم أنهم لم يستحلوها تكنيباً لموسى وكفراً بالتوراة، وإنما هو استحلال تأوיל واحتياط، ظاهره ظاهر الاتقاء وحقيقة الاعتداء، ولهذا -والله أعلم- مسخواً قردة، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله بحيث لم يتمسكون إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته مسخهم لله قردة يشبهونهم في بعض ظاهرهم دون الحقيقة جزاءً وفاقاً)[ابن تيمية، بيان الدليل، ت الخليل، دار ابن الجوزي، ص43].

وبسبب تشريع عقوبة أهل الحيل أمر منها أن فاعل الحرام وهو معتقد حرمته قد ينكسر ويتوبي، وفاعل الحرام محتالاً على النص يقوى قلبه عليها ولا يستحي من الله، كما قال ابن تيمية:

(أن بني إسرائيل أكلوا الربا وأكلوا أموال الناس بالباطل كما قصه الله في كتابه وذلك أعظم من أكل الصيد المحرم في وقت بعينه...، ثم إن أكلة الربا وأموال الناس بالباطل لم يعاقبوا بالمسخ كما عوقب به مستحلو الحرام بالحيلة، وإنما عوقيوا بشيء آخر من جنس عقوبات غيرهم، فيشبهه -والله أعلم- أن يكون هؤلاء لما كانوا أعظم جرماً فاינם بمنزلة المنافقين، وهم لا يعترفون بالذنب بل قد فسدة عقidiتهم وأعمالهم...، كانت عقوبتهن أغلظ من عقوبة غيرهم، فإن من أكل الربا والصيد المحرم عالما بأنه حرام، فقد اقترن بمعصيته اعترافه بالتحريم وهو إيمان بالله وآياته، ويترتب على ذلك من خشية الله ورجاء مغفرته وإمكان التوبة ما قد يفضي به إلى خير، ومن أكله مستحللاً بنوع احتيال تأول فيه فهو مصر على الحرام، وقد اقترن به اعتقاده الفاسد في حل الحرام، وذلك قد يفضي به إلى شر طويل، ولهذا حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمهاته ذلك فقال «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدئي الحيل»[المصدر السابق، ص43].

وهذا هو الذي رأه الناس فعلاً من جماعة الغلاة، فإنهم يسفكون الدماء المحرمة ويسلبون الأموال ويتفتنون في شنائع القتل ضد المخالفين بتأصيلات شرعية يظهرونها، ويرفضون إخضاع أتباعهم ومباعيهم لجنس هذه التأصيلات؛ فيستحلون الدماء والأموال بالحيل والمرأوغة، ولذلك لا تجد في نفوسهم انكساراً لله من معاصيهن وجرائمهم، بل يزدادون استعلاءً بسبب إظهارهم الباطل في صورة الحق.

ومن أسباب هذه الغطرسة أن التحرير والتلبيس في الشرعيات يغرّ المرء و يجعله مقدماً على المعاصي، وقد نبه كتاب الله على هذا، كما قال الله {وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}.

واعلم أن عامة الجرائم لا يواقعها المرء إلا وقد وضعها له الشيطان في قالب تبريري، وحتى القتل وإذهاق النفوس، بل حتى "قتل الأقارب" الذي تستفطنه النفوس لا يكون إلا بتزيين كما قال الله {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أُولَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ}.

وهذا كله أدخله السلف في "مخادعة الله" وقد قال الله {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}، ومن أكثر عبارات الأئمة عمّا واجهوا في صياغتها عبارة الإمام التابعي الجليل أبو بكر السختياني حيث قال عن أهل الحيل في الأحكام الشرعية في أول ظهورها من جهة الكوفة (يخدعون الله لأنما يخادعون الصبيان، لو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون علي)[نقلت بلفاظ متفاوتة، وقد علقها البخاري في صحيحه (6964)، وذكر ابن حجر في التعليق أن وكيعاً وصلها في مصنفه 5/264].

فقول الإمام أبوبكر عن أهل الحيل "يخدعون الله لأنما يخادعون الصبيان" فيه وصف لحال غلاتنا كأنه يراه، فمرأوغات الغلاة في قواعد التكfir والدماء لا يراغون فيها حتى قوة الشبهة لتمريرها على الناس، بل فيها سفور في الصياغة لأنما

وقول الإمام أیوب "لو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون على"، هو من كمال فقهه رحمة الله، فهو يقول لو عصوا الله معتزفين بالمعصية لكان أهون من معصية الله ونسبة معصيتهم للشرع، بما يعني أن هؤلاء لو اعترفوا أنهم كانوا مخطئين مقصرين في الدماء التي سفكت لكان أهون من أن ينسبوا تلك الجرائم للشريعة، لأن المعترف حرري به التوبة والمكابر يزداد إسرافاً.

وقد نبه كتاب الله إلى أن الشيطان قد يوسموس للمجاهد بالتعنت في قبول إسلام الخصم من أجل الأغراض الدنيوية كما قال الله **{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}**، فتدبر هذه الآية ثم تأمل كم تعنت هذا التنظيم في اختراع قواعد التكفير لأجل عرض الدنيا من السلطة والهيمنة والاستيلاء على الغنائم..

ومن تدبر هذه الحيل والمراوغات أدرك أن تنظيم الدولة دخل في "تعيض الشريعة" .. فبالله عليك ألسنت تعلم أن تنظيم الدولة يحفل بالأحكام الشرعية التي فيها سيادته وظهوره وغنيمتها، ويماطل في الأحكام الشرعية التي فيها غضاضة عليه؛ أليس هذا تعبيضاً للشريعة والله يقول **{وَيَقُولُونَ تُؤْمِنُ بِعَيْنِي وَتَكْفُرُ بِيَعْنِي}**، ويقول **{أَفَتُؤْمِنُ بِيَعْنِي الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِيَعْنِي}** ويقول سبحانه **{الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِصْبِيْنَ}**، ويقول سبحانه **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبَدُّوْنَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}**.

ومن الانتهاكات التي تبرز الشعاراتية: إزالة الذات والحزب منزلة الشرع، فمن انتقدهم أو خالفهم أو وقف في طريقهم فهو يقف في وجه الإسلام، حتى وصلوا لمرحلة الإعلان عن قاعدة "من قاتلنا فقد كفر" كما يقول البيان الرسمي (فاحذر فإنك بقتال الدولة الإسلامية تقع بالكفر، من حيث تدري أو لا تدري) [العدناني، بيان بعنوان: يا قومنا أجيبيوا داعي الله، مؤسسة الفرقان، الدقيقة: 14]، والتي سبق بيانها في أول حلقة من سلسلة هذه الدراسة.

ومن مظاهر "إزالة الذات والحزب منزلة الشرع" قولهم في بيان رسمي آخر (وقف بعضكم ضد مشروع الدولة، ضد الحكم بما أنزل الله) [العدناني، بيان بعنوان: دولة الإسلام باقية، مؤسسة الفرقان، الدقيقة: 25].

وهكذا فوقف أي شخص ضد مشروع تنظيم الدولة هو بالتعريف "وقف ضد الحكم بما أنزل الله"، وليس وقوفاً ضد انتهاكات تنظيم الدولة للشريعة بما فيها الغلو وتکفير أهل الإسلام واستحلال دمائهم وأموالهم وتعذيبهم في المعذلات والسلط بالخصوص على الفصائل الجهادية والحركات الدعوية والشخصيات العلمية والتحايل والتلاعيب بالقواعد الشرعية بحسب المصالح الحزبية.

وهذا يشبه من يسطو على أموال التجار فمن قاومه قال لهم "أنتم ضد العدالة في توزيع الثروة والله يقول كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم"، أو من يروج الفن الهازي فمن احتسب عليه قال له "أنتم ضد استمتاع الناس بزينة الله التي أخرج لعياده، ونحو هذه الحجج.

ومن الانتهاكات التي تبرز الشعاراتية: قيام أصولهم في باب الدماء على مفهوم "القتل الجاهلي"، سواءً في أسلوبه، أو وسائل تنفيذه، فإن قتالهم مبني على التجبر على المسلمين، والعدوان في الابتداء، والزيادة في الاستيفاء، والإسراف في الثارات، وروح الانتقام والضغائن، والمفاحرة وحمية الجاهلية وأخذ العزة بالإثم والعصبية الحزبية، والتمثيل بالجثث وتشنيع وسائل القتل، ويشمله كله معنى "العدوان".

وقد قال الله في قتال البطريركي **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ بِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرَيَاءَ النَّاسِ}**، وكم من مرة خرج تنظيم الدولة بأرتاله يبث صورها يستعرض بها على الفصائل المجاهدة والقبائل الفاضلة بطرأ ورئاء الناس..

وأما "قتال الحمية الحزبية" فهي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من قاتل تحت راية عُصَيَّة، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل؛ فقتلة جاهلية) [مسلم: 1848]، وكم من مرة تنادوا للثأر لرأيتم وحزبهم لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا..

وأشهر مثال على هذا "القتال الجاهلي" عند تنظيم الدولة، بل الذي يبدو لي أن هذه الواقعة ستبقى حزاقة تاريخية في ذكر

أخبار العداون في هذا العصر، تروى مع أخبار فظائع الميليشيات الشيعية، وأستبعد جداً أن ينسى أهل الشام وال العراق هذه الحادثة وفجيعتها عقوداً من الزمن قادمة، هي حادثة القتل الشنيع الجماعي لرجال وشباب "قبيلة الشعيبات" السنّية، بهدف بث الذعر في القبائل ل تستسلم وتبایع ولا تخرج عن بيت الطاعة والخضوع..

ولو وضعت كل جرائم تنظيم الدولة في كفة وجريمة القتل الجماعي لرجال قبيلة الشعيبات السنّية في كفة لطاشت بهن دماء الشعيبات.. وليقن الجميع بين يدي الله سبحانه فليعد كل من شارك وناصر جوابه.. ويأرب سلم سلم ولا تؤاخذنا بعجزنا عن دفع الظالم عنهم.

والعجب حقاً أن تنظيم الدولة ذاته عرض بنفسه صور شباب ورجال الشعيبات صفوافاً وأرتالاً طويلة، ثم عرض صوراً منتخبة لجنود التنظيم وهم يطلقون النار جماعياً على أنفاس منهم، أو ينحرون بالسكاكين أعناقهم، ثم عرض صور جثثهم بعد التصفية الجماعية الميدانية لهم وقد اختلطت دمائهم الزكية بالتراب وعلى ملابسهم أثر بذادة الاعتقال..

وكون الغرض من هذه المقتلة الرهيبة "بث الذعر في بقية القبائل لتخنن للتنظيم" ليس استنتاجاً بحثياً، بل تنظيم الدولة نفسه أصدر بياناً يروي فيه قصة مذبحته في قبيلة الشعيبات وجعل عنوان البيان "فسرّد بهم من خلفهم".

ثم نشر التنظيم تقريراً مبتهجاً بمذبحته هذه القبيلة السنّية الكريمة، وجعل العنوان (عقوبة قبيلة الشعيبات لخيانتها) [مجلة داير، العدد الثالث، ص 12] والخيانته عندهم التي أوجبت هذه الإبادة الجماعية هي الخروج عن بيعة التنظيم، وبنوا على ذلك أن خروجها عن بيعة التنظيم يعني أنها طائفة ممتنعة عن تحكيم الشريعة، لأن تنظيم الدولة هو الوحيد الذي يُحكم الشريعة كاملة في العالم، كما يقول تنظيم الدولة في تقرير رسمي (الدولة الإسلامية تعاملت مع عشائر الشعيبات كطائفة مرتدة ممتنعة عن الشريعة بشوكة) [مجلة داير، العدد الثالث، ص 13].

وبناءً عليه قتلا المئات منهم بطريقة التصفية الميدانية الجماعية بالرصاص والسكاكين والصلب، ونشروا هذه الصور التي تتفطر لها قلوب المؤمنين بأنفسهم، وقد سجل أيضاً بعض الفارين والناجين من مذبحه الشعيبات أهواً لا يصدق القارئ أن آدمياً يفعلها، ونشروا شهاداتهم على الشبكة.

ثم إن هذا المسلك في "البطش" والعرفة والعنجهية والصلف ليس من أخلاقيات الجهاد الشرعي ولا من شرف الفروضية الجهادية، بل هي من تقاليد جبارة الجاهليين وعُتّاهم كما قال الله عن قوم عاد **{وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَارِينَ}**، وسوم الناس بالنkal هو من نزوات الفراعنة المناقضة للنبوات كما قال الله في مواضع من كتابه **{إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}**.

وهذا "القتال الجاهلي" الذي يسلكه تنظيم الدولة هو من أعظم مظاهر حكم الجahلية المناقض لتحكيم الشريعة، وقد قال الله **{أَفَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنْ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}**، وهو قتل همجي على الحزبيات يتفنن في مناكدة المخالف وهو مباین للجهاد المحمدي الشامخ بأخلاقيات الفروضية الجهادية.

هل يقول رجل يستحي من ربه ومولاه أن هذا التنظيم يسعى لتحكيم الشريعة؟! اللهم شرف شريعتك عن أحكام الجahلية.. ثم إن من أعظم خصال تحكيم الشريعة "حفظ ظهور المجاهدين"، وأما نقىض ذلك بالتربيص بالفصائل الجهادية وتحين غرّتها والانقضاض عليها وقت انشغالها بمناجزة النصيرية واستغلال لحظات ضعفها فهذا من تربيص الدوائر بأهل الإسلام الذي قال الله عنه **{وَمَنِ الْأَعْرَابِ مَنْ يَنْخُذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرِمًا وَيَتَرَّصَّنْ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ}**.

ومن الانتهاكات التي تبرز الشعاراتية: سيرهم على منهج "إيواء المُحَدِّثِينَ"، ف يأتي الجندي منهم فيقتل أفراداً من جماعة مجاهدة، أو أفراداً من قبيلة، فإذا طلبو منهم تسليم القاتل آواهه وماطلوا وتعنوا، وفي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لعن الله من آوى محدثاً) [مسلم: 1978]، وإيواء المُحَدِّثِ منعه من أن يُستوفى منه الواجب.

إليك أيها الشاب الذي مازالت لك صلة بتنظيم الدولة: بالله عليك ألسنت تعلم حوادث كثيرة خاص فيها بعض جنود التنظيم

في دماء فصائل أخرى، قتلاً وجراحاً، فلما طلبو القصاص رفض التنظيم؟

الستَّ تقرأ قول ربك {بِاَيْهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتُبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلَى} ويقول سبحانه {وَلَكُمْ فِي الْقَصَاصِ حَيَاةٌ} ويقول سبحانه {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}، ويقول سبحانه بلفظ أعم على أحد الوجهين {وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ}، فهذا السلوك الحزبي من تنظيم الدولة تفريط شديد في الحكم بما أنزل الله..

وماذا لو جاءت إحدى الفصائل وقلبت عليكم حجتك وقالت: أبو بكر قاتل المرتدين لامتناعهم بالشوكه عن فريضة الزكاة، ونحن سنقاتل تنظيم الدولة لامتناعه بالشوكه عن فريضة القصاص؟! فهو طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام؟! ماذا سيكون موقفك حيال ذلك؟ أرأيت أن الغلو في التكفير لهب قد يحرق صاحبه؟

وهذا المنهج الوضعي الجاهلي "إيواء المحدثين"، والمعاطلة في تسليم القاتل هو من أعظم منابع الفتنة التي وقعت في الشام، كما قال الإمام ابن تيمية (إذا لم يتخاصوا فإنهم يتقاتلون، وتقوم بينهم الفتنة، التي يموت فيها خلائق، كما هو معروف في فتن الجahiliyah والإسلام، إنما تقع الفتنة لعدم المعادلة والتنافر بين الطائفتين، وإلا فمع التعادل والتنافر الذي يرضي به أولو الألباب لا تبقى فتنه) [مجموع الفتاوى: ص 78/14].

وهذا الذي ذكره أبو العباس ابن تيمية وصفه دقيق لجزء مما جرى في الشام بسبب سلوكيات تنظيم الدولة في "إيواء المحدثين"، وهذا من شئم الأحكام الجاهلية على الناس، وأما الشريعة وعدلها فهي خير ورحمة.

ومن الانتهاكات التي تبرز الشعاراتية: ما يمكن تسميته "الحسانة الحزبية ضد الإنكار والمحاسبة"، فإن الناس في هذا التنظيم ليسوا على درجة واحدة تحت عدل الشرع، بل هم طبقات ودرجات، فالطبقة الأولى من زعماء التنظيم لا يستطيع أي قاضٍ عندهم استدعاءهم كرهاً لدعوى مدعٍ ضدهم، ولا يستطيع أي فرد في المناطق التي يسيطرون عليها أن يستعلن بالإنكار عليهم والتشنيع عليهم، وفي الصحيحين (إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد)، وأما الجنود المبايعون فلهم درجة فوق عموم الناس، وأما من هو خارج تنظيمهم وسيطربهم فلا كرامة له البتة.

ثم يا أخي .. أليس من أعظم شرائع الإسلام النهي عن المنكر {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرَجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} وقال الله {لَعْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَافُوذَ وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ \*} كانوا لا يَتَاهُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِسْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} بالله عليك من يستطيع أن يصدع ببني أمراككم ومعظميكم عن المنكر ويرجع سالماً لمنزله آمناً من التصفية؟!

ومنهج "الحسانة الحزبية" يفضي لترك شريعة من أعظم الشرائع وهو تحكيم الشرع على النفس وعلى الغير كما قال الله {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَفْسَكُمْ} وقول الله {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفُكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} وقول الله {كُبَرَ مَقْتَنَا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}.

بل إن هذا المسلك في الموالاة الحزبية والاستهانة بحقوق المسلمين من غير الحزب، والاستخفاف بظلم المسلمين والعدوان عليهم من غير الحزب بحجة أن لا حرمة لهم؛ فيها مشابهة لجنس مقوله اليهود حين حكى الله عنهم {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَمْمَيْنَ سَبِيلٌ}، ولذلك تجد كثيراً من أتباع التنظيم يتجربون على بقية الفصائل في أبشارهم وأموالهم وكرامتهم ثم يتذرعون بالحجج التي يتوصلون بها إلى أن هؤلاء لا كرامة لهم، كما قال الله عن اليهود {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَمْمَيْنَ سَبِيلٌ}.

فهل هذه أحكام الشريعة؟ أم هذه أحكام الجahiliyah وربنا يقول {أَفَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوْقَنُونَ}.

ومن الانتهاكات التي تبرز الشعاراتية: ما يمكن تسميته "الانتقاء الحزبي في شورى الأمة"، فإن الله سبحانه لما ذكر الشورى

جعلها عامة في المسلمين فقال {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَنَهُمْ}، وقال سبحانه {وَشَارِهِمْ فِي الْأَمْرِ}، ولا يسوغ أن يقوم شخص ويضع لنفسه مواصفات حزبية، من وافقه عليها أدخله في الشورى التي تتعلق بالأمة، ومن خالفه منع من مشاورته في أمر الأمة! وتنظيم الدولة يعلن بصراحة أن هؤلاء المخالفين لا عبرة بهم في الشورى، بل في مواضع شنّع على بعض الفصائل لمشاورتها شخصيات يرى أنها خالفت المنهج، ومن الشواهد مثلاً أنه في بيان رسمي للدولة نقل أبو محمد العدناني اعتراض بعض الناس عليهم بقولهم (ومما تُنَهَّمُ به وَيُفْتَرِى عَلَيْنَا : أَنَّا أَعْلَمُ الْأَمْمَاتُ بِالْإِسْلَامِ قَبْلَ أَوْانَهَا ، وَفَتَأْتَنَا عَلَى الْأَمْمَةِ ، وَلَمْ نَشَارِهِا..).

ثم ذكر عدة اعتبارات لعدم مشاورتهم غيرهم وكان من ضمنها قوله (ثم ما كان لنا أن نشاور من الفصائل من يخالفنا المنهج والمشروع..)[العدناني، بيان بعنوان: لن يضروكم إلا أذى، مؤسسة الفرقان، الدقيقة: 31].

ومن الانتهاكات التي تبرز الشعاراتية: التلاعيب بقواعد الشرع في وسائل الإثبات ضد المخالف الحزبي في التكفير والجنيات، كاعتبار صور الاجتماعات أو اللقاءات بين مجاهد ومسؤول إقليمي أو دولي أو القدرة على السفر دون اعتقال أو حضور مؤتمر خارجي الخ اعتبارها من وسائل إثبات الردة وتولي الكفار ومظاهرتهم الخ ويستخدمون مثل هذا التساهل في طرق البيانات ووسائل الإثبات أيضاً في بقية أبواب الجنائيات مع المخالف الحزبي، وهذا العبث السياسي بقواعد الشرع في باب التكفير والدماء يدخل في عموم نصوص "اتخاذ آيات الله هزوا"، وقد جاء الوعيد الشديد في تغليظ ذلك، كما قال الله {وَلَا تَتَخَذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوا}، وقال سبحانه {ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ أَتَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوا}.

ومن الانتهاكات التي تبرز الشعاراتية: هجرهم لشريعة "القول الحسن" كما قال الله {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} بل لا يخطر في بالهم أن القول الحسن مع المسلمين المخالفين لهم هو من تحكيم الشريعة، ومما يدخل في هذا "اللين للمؤمنين" وقد قال الله {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ}، بل مدح الله خفض الجناح للمؤمنين بقوله {أَذْلَلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}، الواقع الذي يعرفه المواقف والمخالف اليوم أن سلوك التنظيم هو في غاية الفظاظة الجاهلية مع خيار الناس من المجاهدين والعلماء والدعاة والفضلاء وغيرهم.

بل تأمل كيف يفرح التنظيم بكل عنت يقع على فصائل المجاهدين والحركات الدعوية، وتعييرهم بذلك، ثم تأمل وصف رسول الله {أَلَفْدَ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَتَّمْ}.

ومما يدخل في هذا وهو من أعظم أحكام الشريعة جمع كلمة المسلمين، كما قال الله {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرُّقُوا} وقال سبحانه {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازِعُوا فَتَنَشَّلُوا وَتَذَهَّبَ رِيحُكُمْ} ويعلم المواقف والمخالف اليوم أن تنظيم الدولة من أشد الكيانات إثارة للشحنة والنزاعات بين المسلمين بإجماع الفصائل على نسبة ذلك له..

ومن الانتهاكات التي تبرز الشعاراتية : ترك المنهج العلمي في فهم الشريعة وتحكيمها، ولا يكفي الظهور بمظهر من يزيد تطبيق الشرع، بل الشرع المراد تحكيمه يجب أن يكون بمنهج علمي في النظر والاستدلال، وقد نبه كتاب الله كثيراً لأصول النظر العلمي وعثراته ومن ذلك قوله { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، وقوله {وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُخْلِلُونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، وقوله {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}.

ومن أصول تحكيم الشريعة استعمال الحكمة مع الناس كما قال الله {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}، وهل يقول أحدٌ يحترم العلم والموضوعية أن تنظيم الدولة يستعمل الحكمة مع الناس؟! أم يتبعون بالعجزة والعنجهية والصلف مع المخالفين؟!

والمراد أن الانسجام للشرع وتحكيم الشريعة ليس برفع رايته نظرياً وإكثار الإصدارات الإعلامية بذلك، وتقضي المسائل الرمزية والمستغربة وقرع الطبول لها، وإنما أعظم من يقوم بتحكيم الشرع هو "الأكثر تقوى لله" في تنزيتها، حتى ولو لم يزيد على غيره بالشعارات، ولذلك لما احتجت قريش بأنها "تقوم بشؤون المسجد الحرام" وأنها أولى به لأجل هذه المسائل

الظاهرة رد الله عليهم بقوله **{وَمَا لَهُمْ أَلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصْنُدُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أُولَيَاءُهُ إِنْ أُولَيَاءُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ}** فبین سیحانه أن الأولى بالشرع هو "الأتفى لله فيه" وليس من يرفع الشعارات.

هذه بعض المظاهر، وقد مضى في الحلقات السابقة ذكر مظاهر أخرى لانتهاكات تنظيم الدولة لأحكام الشريعة وكثرة الأحكام "الجاهلية" في سلوكه، وأن كلامهم عن تحكيم الشريعة "شعاراتي" للاستقطاب الحزبي وتسخير الأتباع واستئصال المخالفين، وسيأتي إن شاء الله ذكر مظاهر أخرى.

حسناً، هذه هي الحلقة الخامسة من سلسلة هذه الأوراق عن تنظيم الدولة، وسنكمي بعض النتائج والتحليلات في الحلقة السادسة القادمة قريباً بإذن الله، وأما الحلقات الأربع السابقة فيمكن للقارئ الرجوع لها من خلال الروابط أسفل هذه المقالة.

والله أعلم،

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآلـه وصحبه.

صيـد الفوـائد

المصادر: